

حسن الخلق

س: تحدث عن أهمية حسن الخلق؟

ج: الخلق الحسن صفة الأنبياء والصديقين، وأن الأخلاق السيئة سموم قاتلة، تنخرط بصاحبها في سلك الشيطان، وأمراض تفوت جاه الأبد، فينبغي أن تعرف العلل ثم التشمير في معالجتها، ونحن نشير إلى جل من الأمراض، وكيفية معالجتها في الجملة من غير تفصيل.

واعلم: أن الناس قد تكلموا في حسن الخلق متعرضين لثمرته لا لحقيقته، ولم يستوعبوا جميع ثمراته، بل ذكر كل منهم ما حضر في ذهنه، وكشف الحقيقة في ذلك أن يقال: كثيرًا ما يستعمل حسن الخلق مع الخلق، فيقال: فلان حسن بالخلق والخلق. أي حسن الظاهر والباطن، فالمراد بالخلق: الصورة الظاهرة، والمراد بالخلق: الصورة الباطنة، وذلك أن الانسان مركب من جسد ونفس.

فالجسد مدرك بالبصر، والنفس مدركة بالبصيرة، ولكل واحدة منها هيئة وصورة إما جميلة أوقبيحة، والنفس المدركة بالبصيرة أعظم قدرًا من الجسد المدرك بالبصرة، ولذلك عظم الله ﷻ أمره فقال: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلِّقُ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۖ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُم سَجِدِينَ﴾ [ص: ٧١-٧٢]، فنبه على أن الجسد منسوب إلى الطين، والروح منسوب إليه ﷻ، فالخلق عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الأفعال جميلة سميت خلقًا حسنًا، وإن كانت قبيحة سميت خلقًا سيئًا.

وقد زعم بعض من غلبت عليه البطالة فاستقل الرياضة، أن الأخلاق لا يتصور تغييرها، كما لا يتصور تغيير صورة الظاهرة.

والجواب: أنه لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لم يكن للمواعظ والوصايا

معنى، وكيف تنكر تغيير الأخلاق ونحن نرى الصيد الوحشي يستأنس، والكلب يعمل ترك الأكل، والفرس تعلم حسن المشي وجودة الانقياد، إلا أن بعض الطباع سريعة القبول للصالح، وبعضها مستصعبة.

وأما خيال من اعتقد أن ما في الجبل لا يتغير، فاعلم أنه ليس المقصود قمع هذه الصفات بالكلية، وإنما المطلوب من الرياضة رد الشهوة إلى الاعتدال الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط، وأما قمعها بالكلية فلا، كيف والشهوة إنما خلقت لفائدة ضرورية في الجبل، ولوانقطعت شهوة الطعام لهلك الانسان. أوشهوة الوقاع لانقطع النسل، ولوانعدم الغضب بالكلية، لم يدفع الانسان عن نفسه ما يهلكه. وقد قال الله تعالى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ [الفتح: ٢٩] ولا تصدر الشدة إلا عن الغضب، ولو بطل الغضب لامتنع جهاد الكفار، وقال تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، ولم يقل: الفاقدين الغيظ.

وكذلك المطلوب في الشهوة الاعتدال دون الشره والتقليل، قال الله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الاعراف: ٣١] إلا أن الشيخ المعلم إذا رأى لمن أمامه ميلاً إلى الغضب والشهوة، حسن أن يبالغ في ذمها على الإطلاق ليرده إلى التوسط، ومما يدل على أن المراد من الرياضة الاعتدال أن السخاء خلق مطلوب شرعاً، وهو وسط بين طرفي التقير والتبذير وقد أثنى الله عليه بقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

واعلم أن هذا الاعتدال. تارة يحصل بكمال الفطرة منحة من الخلق، فكم من صبي يخلق صادقاً سخياً حليماً، وتارة يحصل بالاكْتِسَاب، وذلك بالرياضة، وهي حمل النفس على الأعمال الجالبة للخلق المطلوب، فمن أراد تحصيل خلق الجود، فليتكلف فعل الجواد من البذل ليصير ذلك طبعاً له.

وكذلك من أراد التواضع تكلف أفعال المتواضعين، وكذلك جميع الأخلاق الحمودة فإن للعادة أثراً في ذلك، كما أن من أراد أن يكون كاتباً تعاطي فعل

الكتابة، أوفقيها تعاطي فعل الفقهاء من التكرار، حتى ينعطف على قلبه صفة الفقه، إلا أنه لا ينبغي أن يطلب تأثير ذلك في يومين أو ثلاثة، وإنما يؤثر مع الدوام، كما لا يطلب في النمو علو القامة في يومين أو ثلاثة. وللدوام تأثير عظيم.

وكما لا ينبغي أن يستهان بقليل الطاعات، فإن دوامها يؤثر، وكذلك لا يستهان بقليل الذنوب. وكما أن تعاطي أسباب الفضائل يؤثر في النفس ويغير طبعها، فكذلك مساكنة الكسل أيضا يصير عادة، فيحرم بسببه كل خير.

وقد تكتسب الأخلاق الحسنة بمصاحبة أهل الخير، فإن الطبع لص يسرق الخير والشر.

قلت: ويؤيد ذلك قوله ﷺ: «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل» [أخرجه أبو داود (٤٨٣٣)، والترمذي (٢٣٧٨)، وأحمد في مسنده (٨٢١٢)، وحسنه الشيخ الألباني في «رياض الصالحين» برقم (٣٧١)].

الطريق إلى تهذيب الأخلاق

س: وما السبيل إلى تهذيب الأخلاق؟

ج: قد عرفت أن الاعتدال في الأخلاق هو الصحة في النفس، والميل عن الاعتدال سقم ومرض، فاعلم أن مثال النفس في علاجها كالبدن في علاجه، فكما أن البدن لا يخلق كاملاً، وإنما يكمل بالتربية بالغذاء، كذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال، وإنما تكمل بالتركية وتهذيب الأخلاق، والتغذية بالعلم.

وكما أن البدن إذا كان صحيحاً، فشأن الطبيب العمل على حفظ الصحة، وإن كان مريضاً، فشأنه جلب الصحة إليه، كذلك النفس إذا كانت زكية طاهرة مهذبة الأخلاق، فينبغي أن يسعى بحفظها وجلب مزيد القوة إليها، وإن كانت عديمة الكمال، فينبغي أن يسعى بجلب ذلك إليه.

وكما أن العلة الموجبة لمرض البدن إلا بضدها، إن كانت من حرارة فبالبرودة وإن كانت من البرودة فبالحرارة، فكذلك الأخلاق الرذيلة التي هي من مرض القلب، علاجها بضدها، فيعالج مرض الجهل بالعلم، ومرض البخل بالسخاء، ومرض الكبر بالتواضع، ومرض الشره بالكف عن المشتهي.

وكما أنه لا بد من احتمال مرارة الدواء، وشدة الصبر عن المشتريات لصالح الأبدان المريضة، فكذلك لا بد من احتمال المجاهدة، والصبر على مداواة مرض القلب، بل أولى، فإن مرض البدن يخلص منه بالموت، ومرض القلب عذاب يدوم بعد الموت أبدًا.

وينبغي للذي يطب النفوس أن لا يهجم عليهم بالرياضة في فن مخصوص، حتى يعرف أخلاقهم وأمراضهم، إذ ليس علاج كل مريض واحدًا، فإذا رأى جاهلاً بالشرع علمه، وإذا رأى متكبرًا حمله على ما يوجب التواضع، أو شديد الغضب ألزمه الحلم.

وأشد حاجة الرائض لنفسه، قوة العزم، فمتى كان مترددًا بعد فلاحه، ومتى أحس من نفسه ضعف العزم تصبر، فإن نقصت عزيمتها عاقبها لثلا تعاود، كما قال رجل لنفسه: تتكلمين فيما لا يعينيك؟ لأعاقبك بصوم سنة؟

علامات مرض القلب وصحته

س: ما هي علامات مرض القلب؟

ج: اعلم: أن كل عضو خلق لفعل خاص، فعلاية مرضه أن يتعذر منه ذلك الفعل، أو يصدر منه مع نوع من الاضطراب، فمرض اليد تعذر البطش، ومرض العين تعذر الإبصار، ومرض القلب أن يتعذر عليه فعله الخاص به الذي خلق لأجله، وهو العلم والحكمة والمعرفة، وحب الله تعالى وعبادته، وإيثار ذلك على كل شهوة.

فلو أن الإنسان عرف كل شيء ولم يعرف الله سبحانه، كان كأنه لم يعرف شيئاً. وعلامة المعرفة: الحب، فمن عرف الله أحبه، وعلامة المحبة أن لا يؤثر عليه شيئاً من المحبوبات، فمن أثر عليه شيئاً من المحبوبات فقلبه مريض، كما أن المعدة التي تؤثر أكل الطين على أكل الخبز - وقد سقطت عنها شهوة الخبز - مريضة. ومرض القلب خفي قد لا يعرفه صاحبه، فلذلك يغفل عنه، وإن عرفه صعب عليه الصبر على مرارة دوائه، لأن دواءه مخالفة الهوى، وإن وجد الصبر لم يجد طبيباً حاذقاً يعالجه، فإن الأطباء هم العلماء، والمرض قد استولى عليهم، والطبيب المريض قلما يلتفت إلى علاجه، فلهذا صار الداء عضالاً، واندرس هذا العلم، وأنكر طب القلوب ومرضاها بالكلية، وأقبل الناس على أعمال ظاهرها عبادات وباطنهما عادات فهذه علامة أصل المرض.

وأما عافيته وعوده إلى الصحة بعد المعالجة، فهو أن ينظر إلى العلة، فإن كان يعالج داء البخل، فعلاجه بذل المال، ولكنه لا يسرف، ويصير إلى حد التبذير، فيحصل داء آخر فيكون كمن يعالج البرودة بالحرارة الغالبة حتى تغلب الحرارة، فيكون داء أيضاً، بل المطلوب الاعتدال.

وإذا أردت أن تعرف الوسط، فانظر إلى نفسك، فإن كان إمساك المال وجمعه ألد عندك، وأيسر عليك من بذله لمستحقه، فاعلم أن الغالب عليك خلق البخل، فعالج نفسك على البذل، وإن صار البذل للمستحق ألدَّ عندك، وأخف عليك من الإمساك، فقد غلب عليك التبذير، فارجع إلى المواظبة على الإمساك، ولا تزال تراقب نفسك، وتستدل على خلقك بتيسير الأفعال وتعسيرها، حتى تنقطع علاقة قلبك عن المال، فلا تميل إلى بذله ولا إمساكه، بل يصير عندك كالماء، فلا تطلب فيه إمساكه لحاجة محتاج، أو بذله لحاجة محتاج، فكل قلب صار كذلك، فقد جاء الله سليماً في هذا المقام.

ويجب أن يكون سليماً عن سائر الأخلاق، حتى لا تكون له علاقة بشيء من

الدنيا، حتى ترتحل النفس عن الدنيا منقطعة العلائق منها، غير ملتفتة إليها، ولا متشوقة إلى أسبابها، فحينئذ ترجع إلى ربها رجوع النفس المطمئنة.

ولما كان الوسط الحقيقي بين الطرفين في غاية الغموض، بل هو أدق من الشعر، وأحد من السيف، فلا جرم من استوى على هذا الصراط المستقيم في الدنيا، جاز على مثل هذا الصراط في الآخرة، ولأجل عسر الاستقامة أمر العبد أن يقول في كل يوم مرات: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، ومن لم يقدر على الاستقامة، فليجتهد على القرب من الاستقامة فإن النجاة بالعمل الصالح.

ولا تصدر الأعمال الصالحة إلا عن الأخلاق الحسنة، فليتفقد كل عبد صفاته وأخلاقه، وليشتغل بعلاج واحد بعد واحد، وليصبر ذوالعزم على مضض هذا الأمر، فإنه سيحلوكما يحلوا الفطام للطفل بعد كراهته له، فلورد إلى الثدي لكرهه، ومن عرف قصر العمر بالنسبة إلى مدة حياة الآخرة. حمل مشقة سفر أيام لتنعم الأبد، فعند الصباح يحمد القوم السرى.

واعلم: أن الله تعالى إذا أراد بعبد خيراً بَصَّرَهُ بعيوب نفسه، فمن كانت له بصيرة، لم تخف عليه عيوبه، وإذا عرف العيوب أمكنه العلاج، ولكن أكثر الناس جاهلون بعيوبهم، يرى أحدهم القذى في عين أخيه ولا يرى الجذع في عينه.

س: كيف يعرف الإنسان عيوب نفسه؟

ج: من أراد الوقوف على عيب نفسه، فله في ذلك أربع طرق:

الطريقة الأولى: أن يجلس بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس، يعرفه عيوب نفسه وطرق علاجها، وهذا قد عز في هذا الزمان وجوده، فمن وقع به، فقد وقع بالطبيب الحاذق فلا ينبغي أن يفارقه.

الطريقة الثانية: أن يطلب صديقاً صدوقاً بصيراً متديناً، وينصبه رقيباً على نفسه لينبهه على المكروه من أخلاقه وأفعاله.

وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «رحم الله امرئاً أهدي إلينا عيوبنا».

وسأل سلمان رضي الله عنه لما قدم عليه من عيوبه، فقال: «سمعت أنك جمعت بين إدامين على مائدة، وأن لك حلتين: حلة بالليل، وحلة بالنهار، فقال: هل بلغك غير هذا؟ قال: لا، قال: أما هذا فقد كفيتهما».

وكان عمر رضي الله عنه يسأل حذيفة: «هل أنا من المنافقين؟» وهذا لأن كل من علت مرتبته في اليقظة زاد اتهامه لنفسه، إلا أنه عز في هذا الزمان وجود صديق على هذه الصفة، لأنه قل في الأصدقاء من يترك المداينة، فيخبر بالعيب، أو يترك الحسد، فلا يزيد على قدر الواجب.

وقد كان السلف يحبون من ينبههم على عيوبهم، ونحن الآن في الغالب أبغض الناس إلينا من يعرفنا عيوبنا.

وهذا دليل على ضعف الإيمان، فإن الأخلاق السيئة كالعقارب، ولو أن منبهاً نبهنا على أن تحت ثوب أحدنا عقرباً لتقلدنا له منة، واشتغلنا بقتلها، والأخلاق الرديئة أعظم ضرراً من العقرب على ما لا يخفى.

الطريقة الثالثة: أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من السنة أعدائه، فإن عين السخط تبدي المساوي، وانتفاع الإنسان بعدو مشاجر يذكر عيوبه، أكثر من انتفاعه بصديق مداهن يخفي عنه عيوبه.

الطريقة الرابعة: أن يخالط الناس، فكل ما يراه مذموماً فيما بينهم، يجتنبه.

شبهات النفوس

س: ما الحكمة من وجود شبهات النفوس؟

ج: شبهات النفوس لم توضع إلا لفائدة، إذ لولا شهوة المطعم ما حصل تناول الغذاء، ولولا شهوة الجماع لانقطع النسل، وإنما المذموم فضول الشهوات وطغيانها، وثمة قوم لم يفهموا هذا القدر، فأخذوا يتركون كل ما تشتهي النفس،

وهذا ظلم لها باسقاط حقها، فإن لها حقاً بدليل قوله ﷺ: «إن لنفسك عليك حقاً» [صحيح]: أخرجه البخاري (١٩٦٨)، من حديث أبي حنيفة (رضي الله عنه). حتى إن قائلًا منهم يقول: لي كذا وكذا سنة أشتهي كذا، فلا أتناوله، وهذا انحراف عن الحل وخلاف سنة رسول الله ﷺ، فإنه «كان يتناول المشتهي من الحلو والعسل وغيرهما» [صحيح]: أخرجه البخاري (٥٥٩٩)، من حديث عائشة (رضي الله عنها). فلا يلتفت إلى زاهد قل علمه، فحرم نفسه حظها من المشتهي على الإطلاق، فإن إلى الظلم أقرب منه إلى العدل، وإنما يترك الشتهي إذا صعبت الطريق إليه، مثل أن لا يحصل إلا بوجه مكروه، أو يخاف من تناوله انحلال عزمه، فتطمع النفس في استدامته، أو يحذر من ذلك زيادة شبع، فيشغله عن عبادته، فأما تناوله في بعض الأوقات لتقوية النفس، فذلك كالطب للمريض، يمدح ولا يذم، ولا بأس بالرفق بالنفس لتقوى على السلوك.

علامات حسن الخلق

س: ما هي علامات حسن الخلق؟

ج: ربما جاهد الإنسان نفسه حتى ترك الفواحش والمعاصي، ثم ظن أنه قد هذب خلقه، واستغنى عن المجاهدة، وليس كذلك، فإن حسن الخلق هو مجموع صفات المؤمنين، وقد وصفهم الله تعالى فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۖ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢-٣-٤]، وقال: ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى التَّوْحِيدِ الْحَمِيدُونَ السُّبْحَانَ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ الْمَلِكُ يَوْمَ الدِّينِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [التوبة: ١١٢] وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ [المؤمنون: ١-١٠]، وقال: ﴿وَعِبَادُ

الرَّحْمَنِ الَّذِي يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هُونَكَ﴾ [الفرقان: ٦٣] إلى آخر السورة، فمن أشكل عليه حاله، فليعرض نفسه على هذه الآيات، فوجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق، وفقد جميعها علامة سوء الخلق، ووجود بعضها دون البعض يدل على البعض دون البعض فليشتغل بحفظ ما وجدته وتحصيل ما فقده.

وقد وصف رسول الله عليه وآله وسلم المؤمن بصفات كثيرة، وأشار بها إلى محاسن الأخلاق.

ففي الصحيحين» من حديث ﷺ، أن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لا يؤمن عبد حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» [صحيح]: أخرجه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥). وفيهما أيضًا من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عنه ﷺ أنه قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن كن يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت» [صحيح]: أخرجه البخاري (٦٤٧٥)، ومسلم (٤٧).

ومن حسن الخلق: احتمال الأذى، ففي «الصحيحين» «أن أعرابيًا جذب رداء النبي ﷺ حتى أثرت حاشيته في عاتقه ﷺ، ثم قال: يا محمد، مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله ﷺ، ثم ضحك، ثم أمر له بعتاء» [أخرجه البخاري (٦٠٨٨)، ومسلم (١٠٥٧)]. وكان إذا آذاه قومه قال: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون» [أخرجه البخاري (٣٤٧٧)، ومسلم (١٧٩٢)]. وكان أويس القرني إذا رماه الصبيان بالحجارة يقول: «يا إخوانه، إن كان ولا بد، فارموني بالصغار لئلا تدموا ساقى فتمنعوني من الصلاة».

وخرج إبراهيم بن أدهم إلى بعض البراري فاستقبله جندي فقال: «أين العمران؟ فأشار إلى المقبرة، فضرب رأسه فشججه، فلما أخبر أنه إبراهيم، جعل يقبل يده ورجله، فقال: أنه لما ضرب رأسي، سألت الله له الجنة، لأنني أعلم أني أؤجر بضربه إياي فلم أحب أن يكون نصيبي منه الخير، ونصيبه مني الشر».

واجتاز بعضهم في سكة، فَطَرَحَ عليه رماد من السطح، فجعل أصحابه يتكلمون. فقال: من استحق النار فصولح على الرماد، ينبغي له أن لا يغضب. فهذه نفوس ذلت بالرياضة، فاعتدلت أخلاقهم، ونقيت عن الغش بواطنها، فأثمرت الرضى بالقضاء، ومن لم يجد من نفسه بعض هذه العلامات التي وجدها هؤلاء، فينبغي أن يداوم الرياضة ليصل، فإنه بعد ما وصل.

تنشئة الأبناء

س: وما السبيل لتنشئة الأبناء على محاسن الأخلاق؟

ج: الصبي أمانة عند والديه، وقلبه جوهرة ساذجة، وهي قابلة لكل نقش، فإن عود الخير نشأ عليه، وشاركه أبواه ومؤدبه في ثوابه، وإن عود الشر نشأ عليه، وكان الوزر في عنق وليه، فينبغي أن يصونه ويؤدبه ويهذبه، ويعلمه محاسن الأخلاق، ويحفظه من قرناء السوء، ولا يعودوه التنعم، ولا يحجب إليه أسباب الرفاهية فيضيع عمره في طلبها إذا كبر.

بل ينبغي أن يراقبه من أول عمره، فلا يستعمل في رضاعه وحضائه إلا امرأة صالحة متدينة تأكل الحلال، فإن اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه، فإذا بدت فيه مخايل التمييز وأولها الحياء، وذلك علامة النجاسة وهي مبشرة بكمال العقل عند البلوغ، فهذا يستعان على تأديبه بحياؤه.

وأول ما يغلب عليه من الصفات شَرُّهُ الطعام، فينبغي أن يعلم آداب الأكل، ويعودوه على أكل الخبز وحده في بعض الأوقات لئلا يألف الإدام فيراه كالحتم، ويقبح عنده كثرة الأكل، بأن يشبه الكثير الأكل بالبهايم، ويحبب إليه الثياب البيض دون الملونة والأبريسم، ويقرر عنده أن ذلك من شأن النساء والمختئين، ومنعه من مخالطة الصبيان الذين عودوا التنعم، ثم يشغله في المكتب بتعليم القرآن والحديث

وأحاديث الأخيار، ليغرس في قلبه حب الصالحين، ولا يحفظ من الأشعار التي فيها ذكر العشق.

ومتى ظهر من الصبي خلق جميل وفعل محمود، فينبغي أن يكرم عليه، ويجازي بما يفرح به، ويمدح بين أظهر الناس، فإن خالف ذلك في بعض الأحوال تغوغل عنه ولا يكشف، فإن عاد عوتب سرًا وخوف من اطلاع الناس عليه، ولا يكثر عليه العتاب، لأن ذلك يهون عليه سماع الملامة، وليكن حافظًا هية الكلام معه.

وينبغي للأُم أن تخوفه بالأب، وينبغي أن يمنع النوم نهارًا، فإنه يورث الكسل، ولا يمنع النوم ليلاً، ولكنه يمنع الفرش الوطيئة لتتصلب أعضاؤه.

ويتعود الخشونة في المفرش والملبس والمطعم.

ويعود المشي والحركة والرياضة لئلا يغلب عليه الكسل.

ويمنع أن يفتخر على أقرانه بشيء مما يملكه أبواه، أو بمطعمه أو ملبسه.

ويعود التواضع والإكرام لمن يعاشره، ويمنع أن يأخذ شيئًا من صبي مثله، ويعلم أن الأخذ دناءة، وأن الرفعة في الإعطاء، ويقبح عنده حب الذهب والفضة، ويعود أن لا يبصق في مجلسه، ولا يتمخط، ولا يتشاءب بحضرة غيره، ولا يضع رجلًا على رجل، ويمنع من كثرة الكلام.

ويعود أن لا يتكلم إلا جوابًا، وأن يحسن الاستماع إذا تكلم غيره ممن هو أكبر منه، وأن يقوم لمن هو فوقه ويجلس بين يديه.

ويمنع من فحش الكلام، ومن مخالطة من يفعل ذلك، فإن أصل حفظ الصبيان حفظهم من قرناء السوء.

ويحسن أن يفسح له بعد خروجه من المكتب في لعب جميل، ليستريح به من تعب التأديب، كما قيل: روح القلوب تع الذكر.

وينبغي أن يعلم طاعة والديه ومعلمه وتعظيمهم، وإذا بلغ سبع سنين أمر بالصلاة، ولم يسامح في ترك الطهارة ليتعود، ويخوف من الكذب والخيانة، وإذا

قارب البلوغ، ألقىت إليه الأمور.

واعلم: أن الأطعمة أدوية، والمقصود منها تقوية البدن على طاعة الله تعالى، وأن الدنيا لا بقاء لها، وأن الموت يقطع نعيمها، وهو منتظر في كل ساعة، وأن العاقل من تزود لآخرته، فإن كان نشوؤه صالحاً ثبت هذا قلبه، كما ثبت النقش في الحجر.

شهوة البطن

س: وماذا عن شهوة البطن وخطرها؟

ج: شهوة البطن من أعظم المهلكات، وبها أُخرج آدم ﷺ من الجنة، ومن شهوة البطن تحدث شهوة الفرج والرغبة في المال، ويتبع ذلك آفات كثيرة، كلها من بطن الشبع.

وفي الحديث، أن النبي ﷺ قال: «المؤمن يأكل في معي واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء» [أخرجه البخاري (٥٣٩٣)، ومسلم]. وفي حديث آخر: «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه، حسب ابن آدم أكالات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه» [أخرجه الترمذي (٢٣٨٠)، وابن ماجه (٣٣٤٩)، وأحمد في مسنده (١٦٧٣٥)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٥٦٧٤)].

وقال عقبة الراسبي: «دخلت على الحسن وهو يتغذى، فقال: هلم، فقلت: أكلت حتى لا أستطيع، فقال: سبحان الله أويأكل المسلم حتى لا يستطيع أن يأكل؟!» [أخرجه الترمذي (٢٣٨٠)، وابن ماجه (٣٣٤٩)، وأحمد في مسنده (١٦٧٣٥)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٥٦٧٤)]. وقد بالغ جماعة من الزهاد في التقلل من الأكل والصبر على الجوع، وقد بينا عيب ما سلكوا في غير هذا الكتاب، ومقام العدل في الأكل رفع اليدين مع بقاء شيء من الشهوة، ونهاية المقام قوله ﷺ: «ثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه».

فالأكل في مقام العدل يصح البدن وينفي المرض، وذلك أن يتناول الطعام حتى يشتهيه، ثم يرفع يده وهو يشتهيه، والدوام على التقليل من الطعام يضعف القوى، وقد قلل مطاعمهم حتى قصرُوا عن الفرائض، وظنوا بجهلهم أن ذلك فضيلة، وليس كذلك، ومن مدح الجوع، فإنما أشار إلى الحالة المتوسطة التي ذكرناها. وطريق الرياضة في كسر شهوة البطن أن من تعود استدامة الشبع، فينبغي له أن يقلل من مطعمه يسيرًا مع الزمان، إلى أن يقف على حد التوسط الذي أشرنا إليه، وخير الأمور أوسطها، فالأولى تناول ما لا يمنع من العبادات، ويكون سببًا لبقاءه القوة، فلا يحس المتناول بجوع ولا شبع، فحينئذ يصح البدن، وتجتمع الهمة، ويصفو الفكر، ومتى زاد في الأكل أورثه كثرة النوم، وبلادة الذهن، وذلك بتكثير البخار في الدماغ حتى يغطي مكان الفكر، وموضع الذكر، ويجلب أمراضًا آخر.

وليحذر من ترك شيئًا من الشهوات أن تتطرق إليه آفة الرياء، وقد كان بعضهم يشتري الشهوة ويعلقها في بيته وهواهد فيها، يستر بها زهده، وهذا هو الزهد، في الزهد بإظهار ضده، وهو عمل الصديقين، لأنه يجرع نفسه كأس الصبر مرتين، والثانية أمر.

شهوة الفرج

س: وماذا عن شهوة الفرج، ما أهميتها وما خطارها؟

ج: شهوة الوقاع سلطت على الآدمي لفائدتين:

إحداهما: بقاء النسل، والثانية ليدرك لذة يقيس عليها لذات الآخرة، فإن ما لم يدرك جنسه بالذوق، لا يعظم إليه الشوق، إلا أنه إذا لم ترد هذه الشهوة إلى الاعتدال، جلبت آفات كثيرة، ومحنًا، ولولا ذلك ما كان النساء حباثل الشيطان. وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «ما تركت في الناس بعدي فتنة أضر على الرجال

من النساء» [أخرجه الترمذي (٢٣٨٠)، وابن ماجه (٣٣٤٩)، وأحمد في مسنده (١٦٧٣٥)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٥٦٧٤)].

وقال بعض الصالحين: لو ائتمني رجل على بيت مال، لظننت أن أؤدي إليه الأمانة، ولو ائتمني على زنجية أخلو بها ساعة واحدة، ما ائتمنت نفسي عليها. وعن النبي ﷺ قال: «لا يخلو رجل بامرأة فإن ثالثهما الشيطان» [صحيح]: أخرجه الترمذي (١١٧١) كتاب الرضاع - باب ما جاء في كراهية الدخول على المغيبات، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح جامع الترمذي»].

وقد ينتهي الإفراط في هذه الشهوة، حتى تصرف همه الرجل إلى كثرة التمتع بالنساء فيشغله عن ذكر الآخرة، وربما آل إلى الفواحش، وقد تنتهي بصاحبها إلى العشق، وهو أقبح الشهوات، وأجدرها أن تستحي منه، وقد يقع عند كثير من الناس عشق المال، والجاه، واللعب بالترد، والشطرنج، والطنبور، ونحو ذلك، فتسئول هذه الأشياء على القلوب فلا يصبرون عنها.

ويسهل الاحتراز عن ذلك في بدايات الأمور، فإن آخرها يفتقر إلى علاج شديد، وقد لا ينجح، ومثاله من يصرف عنان الدابة عند توجيهها إلى باب تريد دخوله، فما أهون منعها بصرف عنانها، ومثال من يعالجه بعد استحكامه، مثال من يتركها حتى تدخل الباب وتجاوزته، ثم يأخذ بذنبها يجرها إلى وراء، وما أعظم التفاوت بين الأمرين!!

آفات اللسان

س: تحدث عن آفات اللسان وخطورها، وما السبيل إلى التوقي منها؟

ج: آفاته كثيرة متنوعة، ولها في القلب حلاوة، ولها بواعث من الطبع، ولا نجاة من خطورها إلا بالصمت.

س: وما فضيلة الصمت وأهميته؟

ج: اعلم: أن الصمت يجمع الهمة ويفرغ الفكر، وفي الحديث، أن النبي ﷺ قال: «من يضمن لي ما بين لحييه، وما بين رجليه أضمن له الجنة». وفي حديث معاذ في آخره: «كف عليك هذا» فقلت: يا رسول الله، وإنا لمؤخذون بما نتكلم به؟ قال: «ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم، أوقال: على مناخرهم، ألا حصائد ألسنتهم؟» [أخرجه البخاري (٦٤٧٤)]. وقال ابن مسعود: «ما شيء أحوج إلى طول سجن من لساني». وقال أبو الدرداء: «أنصف أذنك من فيك، فإنما جعلت لك أذنان وفم واحد، لتسمع أكثر مما تتكلم به». وقال غلذ بن الحسين: «ما تكلمت منذ خمسين سنة بكلمة أريد أن أعتذر منها».

الكلام فيما لا يعني

س: اذكر ما ورد في ذم الكلام فيما لا يعني؟

ج: واعلم: أن من عرف قدر زمانه، وأنه رأس ماله، لم ينفقه إلا في فائدة، وهذه المعرفة توجب حبس اللسان عن الكلام فيما لا يعني، لأنه من ترك ذكر الله تعالى واشتغل فيما لا يعني، كان كمن قدر على أخذ جوهرة، فأخذ عوضها مدرة، وهذا خسران العمر. وفي الحديث الصحيح، أن النبي ﷺ قال: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» [أخرجه الترمذي (٢٣١٧)، وابن ماجه (٣٩٧٦)، وأحمد في مسنده (١٧٣٩)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» برقم (٢٨١١)]. وقيل للقمان الحكيم: «ما بلغ من حكمتك؟ قال: لا أسأل عما كفيته، ولا أتكلم بما لا يعنيني». وقد روي: «أنه دخل على دواد عليه السلام وهو يسرد درعاً، فجعل يتعج مما رأى، فأراد أن يسأله عن ذلك، فمنعته حكيمته فأمسك، فلما فرغ داود

ﷺ، قام ولبس الدرع ثم قال: نعم الدرع للحرب. فقال لقمان: الصمت حكم وقليل فاعله».

الخوض في الباطل

س: فصل القول في آفة الخوض في الباطل؟

ج: الخوض في الباطل، وهو الكلام في المعاصي، كذكر مجالس الخمر، ومقامات الفساق.

وأشياء الباطل كثيرة. وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «إن العبد ليتكلم بالكلمة يزل بها في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب» [أخرجه البخاري (٦٤٧٧)، ومسلم (٢٩٨٨)]. وقريب من ذلك الجدال والمراء وهو كثرة الملاحاة للشخص لبيان غلظه وإفحامه، والباعث على ذلك الترفع. فينبغي للإنسان أن ينكر المنكر من القول، ويبين الصواب، فإن قبل منه وإلا ترك المماراة، هذا إذا كان الأمر معلقاً بالدين، فأما إذا كان الأمر معلقاً بالدين، فأما إذا كان في أمور الدنيا، فلا وجه للمجادلة فيه، وعلاج هذه الآفة بكسر الكبر الباعث على إظهار الفضل، وأعظم من المراء الخصومة، فإنها أمر زائد على المراء.

وعن النبي ﷺ أنه قال: «أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم» [أخرجه البخاري (٧١٨٨)، ومسلم (٢٦٦٨)]. وهذه الخصومة تعني بها الخصومة بالباطل أو بغير علم، فأما من له حق فالأولى أن يصدف عن الخصومة مهما أمكن لأنها، توغر الصدر، وتهيج الغضب، وتورث الحقد، وتخرج إلى تناول العرض.

التعمر في الكلام

س: اذكر بعض ما ورد في ذم التعمر في الكلام؟

ج: التعمر في الكلام، وذلك يكون بالتشديق، وتكلف السجع.

وعن أبي ثعلبة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أبغضكم إلي وأبعدكم مني يوم القيامة مساويكم أخلاقاً الثرثارون المتشدقون المتفيهقون» [أخرجه أحمد في مسنده (١٧٢٨٩)، والترمذي (٢٠١٨)، وقال: حديث حسن، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (١٥٣٥)]. ولا يدخل في كراهة السجع والتصنع ألفاظ الخطيب، والتذكير من غير إفراط، ولا إغراب، لأن المقصود من ذلك تحريك القلوب، وتشويقها، ورشاقة اللفظ ونحو ذلك.

الفحش والسب

س: اذكر بعض ما ورد في التنفير عن الفحش والسب؟

ج: الفحش والسب والبذاء، ونحو ذلك، فإنه مذموم منهى عنه، ومصدره الخبث واللؤم.

وفي الحديث: «ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء» [أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٢٩) والترمذي (١٩٧٧)، وقال: حديث حسن،، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٥٣٨١)]. وأعلم: أن الفحش والبذاء هو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة، وأكثر ما يكون ذلك في ألفاظ الجماع وما يتعلق به، فإن أهل الخير يتحاشون عن تلك العبارات ويكونون عنها. ومن الآفات: الغناء وقد سبق فيه كلام في غير هذا الموضع.